



معرف الكائن الرقمي للمقال: (DOI)1054239/2319-023-001-009

البلاد التونسية بين: التقارب الحفصي-الإسباني والرغبة العثمانية في تجسيد مشروع العثمنة ببلاد المغرب خلال القرن 16م

Tunisia between: the Hafsid-Spanish rapprochement and the
embodiment of annexation to the Maghreb during Ottoman desire
the 16th century

د. سمير مشوشة*

جامعة عبد الحميد مهري-قسنطينة 2 / الجزائر

Samir.mechoucha@univ-constantine2.dz

تاريخ القبول: 2024/03/26

تاريخ المراجعة: 2024/01/20

تاريخ الإرسال: 2024/01/15

الملخص :

تعالج هذه الورقة البحثية تجليات الصراع الحضاري الديني في غرب البحر المتوسط بين: الحفصيين، الإسبان والاخوة بربروس خلال القرن 16م، وهذا في إطار جدلية الخلفيات التاريخية للصراع الثلاثي ببلاد المغرب وبالأخص البلاد التونسية، فالدولة الحفصية منذ تأسيسها عرفت مظاهر صراع داخلي أثرت كثيرا على واقع استمرارها التاريخي خاصة مع ظهور آل بربروس في غرب المتوسط بداية القرن 16م واستقرارهم في حلق الوادي التونسية وتقرّبهم من البلاط الحفصي، لتتحول بعدئذ هذه المعادلة إلى صراع ثلاثي بين: الحفصيين-الإسبان والعثمانيين. ولعل ما أثر في كل هذا هو التقارب الحفصي-الإسباني خاصة بعد توقيع معاهدة 06 أوت 1535م، والتي حملت في طياتها بنود احتواء كامل البلاد من طرف الإسبان وأصبح كل شيء مباح لهم وفي كل المجالات، وهو الشيء الذي أثار كثيرا اكتمال تجسيد المشروع العثماني في بلاد المغرب، وإن كل هذه الظروف والتداعيات جعلت من البلاد التونسية تعيش جملة من التجاذبات التاريخية والتي تراوحت بين: الأزمات، الصراعات والتصادمات، وانتهت بإعلان الإلحاق وجعل تونس ثالث إبالاة عثمانية في بلاد المغرب بداية من سنة 1574م.

* د. سمير مشوشة، جامعة عبد الحميد مهري-قسنطينة 2-.



الكلمات المفتاحية: الصراع؛ بلاد المغرب؛ البلاد التونسية؛ الدولة الحفصية؛ الإسبان؛ الإلحاق؛ آل بربروس؛ إيالة عثمانية.

Abstract:

This research paper deals with the manifestations of religious civilizational conflict in the western Mediterranean between the Hafs, Spaniards and Barbarossa during the 16th century, This is within the framework of the dialectic of the historical backgrounds of the tripartite conflict in the Maghreb, especially Tunisia. Since its establishment, the Hafsid state has known manifestations of internal conflict that greatly affected the reality of its historical continuation, especially with the emergence of the Barbarossa family in the western Mediterranean at the beginning of the 16th century AD and their settlement in the Tunisian valley and their proximity to the Hafsid court, Perhaps what affected all this was the Hafsid-Spanish rapprochement, especially after the signing of the Treaty of August 6, 1535, which carried with it the terms of containing the entire country by the Spaniards and everything became permissible for them in all fields. All these circumstances and repercussions made the Tunisian country live a number of historical tensions, which ranged between: crises, conflicts and clashes, and ended with the declaration of annexation and making Tunisia the third Ottoman province in the Maghreb starting in 1574 AD.

Keywords : Conflict; Maghreb; Tunisia; Hafsid State; Spanish; Annexation; Barbarossa; Ottoman Province.

مقدمة:

شكل سقوط وتفكك الدولة الموحدية سنة 1269م حدثا تاريخيا هاما في كامل بلاد المغرب الإسلامي، الشيء الذي استغله بعض أعيان وشيوخ عديد المناطق لإعلان قيام دويلاتهم، ولعل أبرزهم: الحفصيون في تونس، الزيانيون في الجزائر والمريينيون في المغرب الأقصى، وكل منها كانت ترى أن لها الأحقية في وراثة الموحدين، ومن جانب آخر فإن المميز في علاقاتها هو الصراع المتزايد والمستمر وخاصة الحدودي القبلي، الذي أدى إلى اندلاع عديد الصدامات العسكرية. بالإضافة إلى عامل خارجي وهو الضغوطات والتحرشات الإسبانية والبرتغالية على سواحلها خاصة بعد محنة الأندلسيين في جنوب إسبانيا بداية سنة 1492م، وبذلك تغيرت معادلة الصراع في ظل هذه التطورات وأدى إلى ظهور طرف فاعل في منطقة بلاد المغرب بداية القرن 16م ممثلا في الإخوة بربروس.

ومن هذه الدول التي عرفت جل هذه التطورات والأحداث نجد: الدولة الحفصية، فمنذ نشأتها لم تسلم من الصراع الداخلي في البلاط الحاكم وخاصة بعد وفاة أمير وحاكم البلاد. وشكلت بداية القرن 16م تحولا تاريخيا هاما في منظومة الدولة الحفصية وهذا بعد تولية الحسن بن محمد الحفصي (1526-1543)م سدة حكمها، ولعل النقطة الفاصلة في كل هذا هو مجيء الأخوين عروج وخير الدين واستقرارهما في جزيرة جربة التونسية واتخاذهما لميناء حلق الوادي كقاعدة بحرية رئيسية لعملياتهم العسكرية البحرية المتوسطية ضد الأساطيل الأوروبية، وقد جاء كل هذا بعد الاتفاق الثنائي بين عروج وبربروس والأمير الحفصي الحسن بن محمد على بند ينص على إلزام الأخوين على دفع خمس (5/1) الغنائم البحرية للخرينة التونسية. وإن مختلف التطورات التاريخية التي عرفتها المنطقة بعدئذ، هو حالات التضيق وسوء الظن من الأمير الحفصي تجاه الأخوين وهو ما جعل علاقاتهما تسوء وانتهت بطرد الأخوين وقواتهما من البلاد التونسية، فتوجهوا بعدئذ الأخوين إلى السواحل الشرقية للمغرب الأوسط وبالتحديد مينائي جيجل وبجاية واتخاذهما كقاعدة بحرية خلفية مهمة. ويمكننا إرجاع كل هذا إلى جملة الفتن التي كانت تصل إلى مسامع الأمير الحفصي عن خطر الأخوين وتهديدهما لسدة حكمه ومنصبه، كل هذا وأكثر جعلنا نقف أمام تساؤلات نلخصها فيما يلي:

- ماهي أهم المؤثرات الرئيسية التي أدت إلى تدهور صورة علاقات الأخوين ببربروس والأمراء الحفصيين مع بداية القرن 16م؟ وكيف تحولت إلى مظهر التباين والتنافر الدائم؟ وما مصير سياسات التقارب بين الحفصيين والإسبان بداية من سنة 1535؟.

هي جملة تساؤلات محورية والتي سنحاول من خلالها تسليط الضوء والتركيز على مظاهر التقارب الأولي بين الحفصيين والإخوانين ببربروس وصولا إلى تشخيص مسببات التباين والتنافر المستمر بينهما طيلة النصف الأول من القرن 16م، ثم التركيز على صور ومظاهر التقارب بين مولاي الحسن الحفصي والملك الإسباني شارل الخامس وما صاحب ذلك من اكتمال تجسيد المشروع العثماني في بلاد المغرب الإسلامي وذلك من خلال إعلان ثالث الإيالات العثمانية في بلاد المغرب سنة 1574م.

ولدراسة مختلف جوانب هذا البحث اعتمدنا المنهج التاريخي الوصفي، بغية وصف وسرد مختلف الأحداث التاريخية التي عرفتها الدولة

الحفصية مع بداية القرن 16م إلى غاية إعلان إلحاقها بالدولة العثمانية سنة 1574م، مع الوقوف عند أهم الأفكار التي تكمل جوانب هذه الدراسة.

1- واقع الدولة الحفصية مع بداية القرن 16م :

1-1- التجاذبات التاريخية ومظاهر الصراع السياسي في البلاط الحفصي:

بعد إعلان أبو زكرياء يحي الحفصي الانفصال بإقليمي القيروان وتونس سنة 1228م والذي صاحبه الإعلان الفعلي عن قيام الدولة الحفصية سنة 1237م، مما يعني لنا تاريخيا انفصالها النهائي عن أركان الدولة الموحدية، وبالموازاة لذلك أعلن يغمراسن بن زيان قيام دولة بني زيان وعاصمتها تلمسان في غرب المغرب الأوسط، وغير بعيد عن هذه الأحداث في بلاد المغرب أعلن بنو مرين عن قيام الدولة المرينية بالمغرب الأقصى، والشئ الملفت للنظر في كل هذا إعلان قيام ثلاث دويلات في فترة زمنية متقاربة وفي مجال جغرافي جد متقارب، وتشير عديد المصادر التاريخية أن كل من هذه الدويلات كانت ترى في نفسها أنها الوريث الشرعي والتاريخي للموحدين ببلاد المغرب الإسلامي (بونار، 2000، صفحة 475).

واعتبرت فترة حكم محمد المستنصر بالله (1249-1277)م -يوم وفاة أبيه- من أزهى الفترات التاريخية للدولة الحفصية في بدايات التأسيس، والشئ الفارق في ولايته هو الصراع الذي ظهر بينه وبين ابن عمه (محمد اللحياني) والذي حاول الاستيلاء على البلاط الحفصي وكامل المملكة (عبد الوهاب، 1953، صفحة 110).

بعد وفاة محمد المستنصر بالله، انتهى العصر الذهبي الأول للدولة الحفصية، وبدأ عصر الاضطراب والتفكك في كامل أرجاء البلاد، وذلك بسبب السياسات التي اتبعها زكريا الأول مؤسس الدولة الحفصية، والتي كانت مقصودة، ليجعل حكم الحلف مقتصرًا فقط على من هم في السلطة، وأدى هذا الأمر إلى اشتداد الصراع في البلاط الحفصي تباعاً (الزركشي، 1966، صفحة 44).

ومع نهاية القرن الرابع عشر الميلادي وبداية القرن الخامس عشر الميلادي، عادت الدولة الحفصية إلى مظاهر قوتها، وامتد نفوذ أبي فارس عبد العزيز (1394-1433) م إلى تلمسان - عاصمة الزيانيين - وأطاعه سلاطين بني زيان، وحافظ على هذا النفوذ أبو عمرو عثمان (1435-1487م) بعده (بونار، 2000، صفحة 475)، وكان عصرهم عصر نهضة الدولة الحفصية، وقد اتبعوا منهج المؤسسين الأوائل في التقرب من الرعية

وطلب حوائجهم، وكان أبو عمرو عثمان ولي الدين هو المشرف على مجالس رجال الفكر والأدب (برنشفيك، 1988، صفحة 39). ولعل المميز في فترة ما بعد أبو عمرو عثمان هو التعاقب السريع لحكام بني حفص، وتراجع تدريجي للسلطة المركزية تحت ضغط البدو المتمردين، فدخلت البلاد في فترة صعبة تولى فيها الحكم سلاطين ضعاف متكالبون على الحكم. فلم تعد الدولة الحفصية متماسكة كما كانت من قبل، إذ استقلت عنها مناطق كثيرة، لدرجة اعتبار فترة حكم أبو عمرو عثمان بداية نهاية حكم بنو حفص، فلقد كانت بينه وبين بعض الحكام وبين أعيان وشيوخ القبائل وقائع كثيرة أدت إلى صدامات وخروج عن الولاية والطاعة (ابن أبي دينار، 1869، صفحة 150).

ومع بداية القرن السادس عشر ميلادي وبالتحديد سنة 1526م، تولى محمد بن الحسن حكم تونس في ظل واقع جد مختلف عن سابقه أساسه الضبابية في البلاط الحاكم، ففقدت الدولة ما بقي من هيبتها، وتآزمت الأوضاع الاقتصادية والثقافية والسياسية، وتعرضت الدولة الحفصية لهجمات القبائل العربية التي وصلت جماهيرها في كثير من الأحيان إلى أسوار مدينة تونس نفسها. وإذا كانت جزيرة جربة قد أفلتت من السيطرة، فإن سلطة الحفصيين وسيطرة البدو نتجت عن صعوبة الوصول إليها، وإن مدن الساحل الشرقي مثل مدن الجريد أخذت استقلالها الذاتي وعاشت تحت رعاية مؤسساتها البلدية القديمة بشرط دفع الرسوم لهم (Mercier, 1891, p 6). وبشكل عام، اتسمت فترة حكم مولاي الحسن بالتهور واحتكار السلطة، حيث كان يميل إلى التعاون مع الإسبان وعقد السلام مع فرسان القديس يوحنا، ونتيجة لهذه الأوضاع انهارت السلطة الحاكمة وانقطع الأمن ولم يكن هناك رادع أمام القوى المحلية التي أعلنت انفصالها في عموم البلاد وتوابعها، أضف إلى ذلك ظهور التحرش والاحتلال الإسباني على سواحل المغرب العربي خاصة نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م (طقوش، 2013، صفحة 221).

1-2- تداعيات وبوادر التقارب الحفصي -الإسباني مع بداية القرن 16م:

تعتبر فترة حكم أبو عبد الله محمد بن الحسن (1493-1526م) فترة بدايات ظهور ملامح الانحطاط والتدهور وهذا بسبب عدم الاستقرار في أغلب المجالات، وهذا بسبب صراعاته العسكرية المتوالية مع مختلف قبائل الدولة الحفصية، والذي عرف فيها الجيش الحفصي العديد من الهزائم مما

تسبب في انفصال أغلبها عن حكم الدولة، ولعل أبرز مثال على ذلك هو مدينة الجزائر والتي استولى عليها الأخوين بربروس، وأيضا مدينتي بجاية وطرابلس الغرب اللتان احتلها الإسبان سنة 1510م (ابن أبي الضياف، 1977، 241).

وبعد وصول الأخوين خير الدين وعروج بربروس واستقرارهما في جزيرة جربة التونسية سنة 1504م والذين أهديا للسلطان الحفصي محمد بن الحسن هدايا قيمة كالتحف والجواري مما غنما، فطلبوا منه الحصول على إذن لاتخاذ جزيرة جربة كقاعدة خلفية بحرية لأسطولهما، وكان لهما ما طلبا مقابل أن يدفعوا خمس (5/1) الغنائم التي يحصلون عليها، فقدم عروج بربروس إلى حلق الوادي واتصل بالسلطان الحفصي وطلب منه ذلك، فقبل السلطان الحفصي طلبه (Haèdo, 1881, p6)

وما يفهم ويستشف من كل هذا أن بدايات الوجود العثماني في بلاد المغرب كان مع بداية القرن 16م من خلال اتخاذ الأخوين بربروس من ميناء حلق الوادي كقاعدة خلفية عسكرية لمختلف نشاطات أسطولهما البحرية وبالأخص كل ما تعلق بعمليات تحرير سواحل وموانئ بلاد المغرب، وكانت مختلف الخطط لتحرير سواحل بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) تنطلق من السواحل التونسية.

وقد كانت مدينة بجاية تابعة إقليميا وجغرافيا للحفصيين، لكنها مع بداية القرن 16م تعرضت لحملة عسكرية إسبانية أدت إلى احتلالها، وهنا كانت النقطة المفصلية والتحول في تثبيت الوجود العثماني في الجزائر، بعد أن طلب سكانها من الأخوين بربروس تحريرها واسترجاعها، الشيء الذي جعل من السلطان الحفصي محمد بن الحسن بطلب المساعدة من الأخوين بربروس لتحرير بجاية وسكانها من الإسبان (ابن أبي الضياف، 1977، صفحة 10)، ويقال في هذا الصدد بأن خير الدين بربروس قد كان سمع بأن بجاية أخذها النصارى من أيدي المسلمين، فظهر له أن يغزوها ويحررها منهم (مجهول، 1934، صفحة 15)، لكنه فشل في محاولته الأولى، بعدها أعاد الكرة في شهر أوت 1514م وحاصرها لمدة فاقت ثلاثة (03) أشهر وبمساعدة ومساعدة مختلف القبائل المجاورة، وقد وصلت هذه المحاولة إلى مرحلة تحقيق المبتغى، لكن نفاذ الذخيرة والعدة والعتاد من قوات الأخوين بربروس الشيء الذي حتم عليهما الانسحاب إلى جيجل، وهذا بعد رفض السلطان الحفصي تزويدهما بما طلباه من ذخيرة وعتاد عسكري، وهنا تذكر



عديد المصادر التاريخية أن الأخوين وقواتهما المرابطة لتحرير بجاية وسواحلها قد نفذ منها البارود، فوجه خير الدين، وأخوه عروج إلى سلطان تونس رسلا بغية تزويدهما وإعانتهم بالبارود، وغيره من آلات الحرب، فامتنع عن ذلك، فسمع بذلك الأخوين ببربروس وقواتهما ببجاية، فتأكدوا بأن السلطان الحفصي قد قطع رابط العلاقة التي كانت بينهما سابقا (مجهول، 1934، صفحة 26).

كل هذه التصرفات وردود الفعل من السلطان الحفصي تجاه نداء الأخوين هو نتيجة حتمية لوضع داخلي كان يعيشه البلاط الحفصي، فنظرته لبطولات الأخوين كانت ضيقة جدا في حوض البحر الأبيض المتوسط وخاصة غربه، الشيء الذي جعل من محمد بن الحسن يحقد عليهم، ويكن العداء لهم و لجميع العثمانيين، وما زاد من ذلك أكثر هو نظرة السلطان الحفصي ورغبته في استمرار نظام حكمه ودولته، فالأسرة الحفصية الحاكمة في تونس في هذه الفترة قد أخذت من هذا التباعد كحجة وقرينة تاريخية للتقارب المهين الذي حصل بين السلطان الحفصي والملك الإسباني شارلكان، وهو ما استغله بعدئذ هذا الأخير في توطيد علاقاته مع الأسرة الحفصية الحاكمة.

من المخططات التي كانت مرسومة في البلاط الملكي الإسباني حتى قبل تواجد الأخوين ببلاد المغرب هو إيجاد طرق وسبل التأثير على مختلف حكام وسلاطين الدول وجعلهم في زاوية الخدم للإسبان، وهو ما كان بالفعل في أواخر أيام السلطان الحفصي محمد بن الحسن، ضف إلى ذلك أن أركان الدولة الحفصية بدأت تنزعزع بشكل كبير وعلى مختلف الأصعدة (ألتر، 1989، الصفحات 109-110).

بعد وفاة السلطان الحفصي محمد بن الحسن سنة 1526م والذي أوصى بتوريث الحكم لأصغر أبنائه مولاي الحسن، ولسوء حظه، أن أغلب مناطق البلاد سارت نحو الاضطراب وخرجت معظم القبائل وأعيانها عن طاعته وولائها له، وانحصر نفوذه -بعد أربع (04) سنوات من حكمه- على الشمال الغربي، واستقلت بعض المدن منها: سوسة، القيروان وعنابة (الشريف، 1993، الصفحات 64-65)، ففقد السلطان الحسن الحفصي هيئته داخل البلاط وحتى خارجها خاصة بعد الأمر بقتل إخوته للانفراد بالحكم، ولم ينج منهم سوى الرشيد، الذي لجأ إلى خير الدين ببربروس، فانشغل بعدها

باللهو، وأهمل أمور الحكم، وأدى به الأمر إلى الإشتغال على شرب الخمر وممارسة كل أنواع الفجور (Rousseau, 1980, p 13).

وقد وصفت لنا بعض مصادر الفترة العثمانية أوضاع البلاد التونسية بعد وصول وتسلم مولاي الحسن حكم الدولة بأنه خرجت عن طاعته مدن عديدة منها سوسة والتي حكمها صهره القليعي، وفي القيروان التي انفصل بها الشيخ عرفة، وهو من قبيلة الشابين، نفس الشيء عرفته قسنطينة والتي أصبحت تحت حكم الأتراك، و وعن القبائل المؤثرة فقد انفصلت عن حكمه أقوى القبائل وهي قبيلة أولاد سعيد، على الرغم من محاولة السلطان الحسن مهادتهم بمبلغ ستين ألف دينار (ابن أبي دينار، 1869، الصفحات 152-153).

من جهة أخرى، استغل حاكم الجزائر البايبرباي خير الدين بربروس الفرصة وطرح فكرة ضم تونس على السلطان العثماني سليم الأول، والتي كانت تمثل موقعا استراتيجيا هاما في الحوض الغربي للبحر المتوسط، قبل أن تسقط بيد الإسبان.

بعد فرار الرشيد بن محمد بن الحسن من بطش وهمجية أخيه أمير البلاد التونسية -الحسن مولاي- ولجؤه إلى خير الدين بربروس في إيالة الجزائر، بدأ تركيزه واهتمامه لضم البلاد التونسية إلى الدولة العثمانية وجعلها ثاني الإيالات المغاربية العثمانية، فبادر باصطحاب الرشيد إلى استانبول وتمكن من مقابلة السلطان العثماني سليمان القانوني والذي أقنعه بضرورة تجهيز وتدعيم أسطوله لفتح تونس (ألتر، 1989، صفحة 110).

شيء مهم وجب الإشارة إليه في هذا الصدد، وهو أن وجود الرشيد بن محمد بن الحسن رفقة خير الدين بربروس بإستانبول يعتبر بمثابة تزكية لفتح تونس وإنهاء الوجود الإسباني والحكم الحفصي فيها، ووفقا لذلك فقد خصص له السلطان العثماني معاشا محترما قدر بخمسمائة درهم جامكية (أنظر التعليق رقم 01) لكل يوم، وكل ما يكفيه هو وعائلته من المأكل والملبس (مقديش، 1988، صفحة 608)، وهذا بعد أن منح له السلطان العثماني حق الإقامة والاستقرار في استانبول هو وعائلته، ومن جهة أخرى تم تزويد خير الدين بربروس بحوالي ثمانية آلاف إنكشاري وأذن له بالتحرك إلى تونس لتحريرها من الإسبان وحكم مولاي الحسن (مجهول، 1934، صفحة 18).

2- التحرشات والاحتلال الإسباني للسواحل الحفصية بداية القرن 16م:

2-1- استنجد الأمير مولاي الحسن الحفصي بالإسبان سنة 1535م:

كانت الدول الأوروبية تخشى بشدة من توحيد بلاد المغرب ضمن المشروع العثماني وجعله منطقة توسع عثمانية مع بداية القرن 16م، خاصة بعد أن أعلن عن إلحاق الجزائر سنة 1519م وحقق خير الدين انتصارا عظيما في تونس سنة 1534م، بحكم موقعها الاستراتيجي في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وألقها بالخلافة العثمانية، فاعتبر الملك الإسباني شارلكان ذلك تهديدا للإمبراطورية الإسبانية ولمواقعها في صقلية ونابولي، ولمصالحها في الحوض الغربي المتوسطي، والسيطرة على الطرق التجارية فيه، وهو ما اعتبره شارلكان تهديدا صريحا وكاملا موجهها ضد أركان امبراطوريته، فقرر توجيه حملة عسكرية بحرية ضخمة لاحتلال تونس ومختلف سواحلها (فارس، 1982، صفحة 34)، وقد جاءت هذه الحملة بناء على عدة أسباب أبرزها التقارب الذي حصل بين السلطان مولاي الحسن الحفصي والملك الإسباني شارلكان.

ما كان استيلاء خير الدين على مدينة تونس الهامة سنة 1534م ليرضي الإسبان وسائر بلدان أوروبا المسيحية، ولذلك قرر شارلكان القضاء على خير الدين وقواته المتواجدة في تونس، وزاد تصميمه لما اتصل به مولاي الحسن الحفصي المخلوع واستنجد به (بن خروف، 2006، صفحة 29)، بالإضافة إلى ذلك فقد وجد شارلكان في الخطاب الذي وجهه له السلطان الحفصي، إثر نصيحة قدمها له علج جنوي يدعى "خيميا" (Ximea) - وهو صديق سابق للأمير الحفصي مولاي الحسن - فرصة مناسبة تمكنه من الاستيلاء على تونس وطرد قوات بربروس، وخلالها أرسل السلطان الحفصي خطابا إلى شارلكان يستعطفه ويستجده ويتعهد له بالتبعية مقابل إعادة ملكه والقضاء على خير الدين بربروس (مجهول، 1934، صفحة 95).

لم يعد الملك الإسباني شارلكان قادرا على البقاء بدون استغلال فرصة استنجد مولاي الحسن به، فقبل بالطلب، وكان أندري دوريا قد حثه على أن يتحرك لطرد القراصنة والأتراك من البلاد التونسية، واستغلال جملة الظروف التي تمر بها هذه المنطقة، ضف إلى ذلك عامل السلام كان مستتباً بين فرنسا ودولة الهابسبورغ (وولف، 2009، ص 47).

2-2- التقارب الحفصي-الإسباني سنة 1535م:

فكر الملك الإسباني شارلكان بعد نداء السلطان الحفصي مولاي الحسن لإعداد حملة صليبية حقيقية موجهة للسواحل التونسية بغية استرجاعها من خير الدين بربروس، فأعد أسطولا بحريا ضخما مركزه موانئ مدينة برشلونة في الجنوب الإسباني، وكانت مؤلفة من عناصر: إسبانية، إيطالية، ألمانية، برتغالية ومالطية، واستطاع أيضا أن يجمع حوالي أربعمئة قطعة بحرية من مختلف الأنواع والأحجام، وقد أعطى إشارة انطلاق هذه الحملة بتاريخ 31 ماي 1535 م، وقدرت بعض المصادر عدد قواتها بأربعة وعشرين (24000) ألف جندي (وولف، 2009، صفحة 48)، بينما تذهب مصادر أخرى إلى أن الملك الإسباني أعطى أوامره سرا، بأن تعد للحرب سفنه (القاليرات) في موانئ إسبانيا، جنوة، وناپولي، وصقلية، وأن تجهز سفن أخرى للنقل شريطة أن تكون ضخمة لنقل العسكر، وأن تشتري الأقوات، والذخائر وغيرها من لوازم الحرب، وقد اجتمع الأسطول في مايوركا نتيجة عاصفة بحرية، ولما هدا البحر اتجه الأسطول إلى سردينيا (كربخال، 1989، الصفحات 33-35).

ولما علم خير الدين بهذه الحملة الضخمة جهز كامل قواته وطلب المساعدات من مختلف القبائل والأعيان، وبعد وصول الأرمادة الإسبانية للسواحل التونسية تفرقت ونزلت بها واشتبكت مع القوات العثمانية بقيادة خير الدين شرق تونس وقد كان التفوق العسكري في بداية المعركة لصالح قوات خير الدين، لكن المفاجأة التي لم يكن يتصورها وينتظرها خير الدين وقواته هو وصول أخبار استيلاء حليف الإسبان مولاي الحسن وسيطرته على القسبة، ففر خير الدين ومن معه إلى الجزائر وفي طريقه اعترضه قبائل بعض المناطق بنواحي تبرسق ووقعت بينهم صدامات كبيرة، وتخلص منهم إلى أن وصل عنابة، فركب البحر في عشرين غرابا وتوجه إلى الباب العالي مع بعض قواته (مقديش، 1988، صفحة 609).

2-3- معاهدة 06 أوت 1535م وفرض السيطرة الإسبانية على البلاد التونسية:

بعد اعلان سقوط البلاد التونسية في يد الإسبان بتاريخ 21 جويلية 1535م أعطى الملك الإسباني جنوده أوامر وتسهيلات كبيرة لنهب المدينة

وقتل من يعارضهم والاستيلاء على ممتلكات السكان وغيرها من الأفعال المستباحة ضد أهالي مختلف المدن (فريد بك، 1988، صفحة 233).

وقد ورد في بعض المصادر التاريخية ذات الصلة بتاريخ تونس العثمانية عن هذه الواقعة أن من نتائج هذه الاستباحة التي منحها شارلكان لجنوده هو مقتل ثلث أهل البلاد التونسية، ونجاة ثلثهم، وأسر الثلث الآخر، وهذا كله بموافقة وتأييد من السلطان الحفصي مولاي الحسن، فتغيرت أحوال البلاد، وساءت ظروف الساكنة وغلت معيشتهم وسادت مظاهر الظلم والاستبداد في أغلب المناطق (ابن أبي الضياف، 1977، صفحة 14).

فرض الملك الإسباني شارلكان على الأمير الحفصي مولاي الحسن توقيع معاهدة بتاريخ 06 أوت 1535م، واعتبرت بمثابة خيانة حقيقية للسلطان الحفصي، واحتوت على بنود أقل ما يقال عنها أنها مذلّة ومهينة لهذا الحاكم، وذهب العديد من سكان البلاد التونسية إلى اعتبارها خيانة للوطن من مولاي الحسن بن محمد، ومن خلالها تم فرض تبعية البلاد التونسية للملك الإسباني (Rousseau, 1980, p 20)، ومن شروط وبنود هذه المعاهدة نجد مايلي:

- أن يلتزم مولاي الحسن بدفع ضريبة سنوية قدرت بألف دوكة ذهبية.
- تنازل السلطان الحفصي عن موانئ: حلق الوادي، عناية، والمهدية، ليقموا بها حاميات إسبانية.

- السماح للإسبان بتجارة المرجان وخاصة في سواحلها الشرقية.
- السماح لجميع المسيحيين بالاستيطان في البلاد التونسية وإقامة شعائرهم بكل حرية.

- أن يقدم السلطان الحفصي إثني عشر حصانا عربيا خلال كل سنة لشارلكان وهذا قبل يوم من عيد القديس جاك في المقابل يتعهد الإمبراطور شارلكان بحماية البلاد والتونسيين (فريد بك، 1988، صفحة 233).

3- إنهاء الوجود الحفصي بالبلاد التونسية وإعلان الإلحاق سنة 1574م:

عرفت البلاد التونسية بعد معاهدة الذل والتبعية والموقعة بتاريخ 06 أوت 1535م والتي أدخلت البلاد في حالة الفوضى والاستقرار والحروب الداخلية بين قبائلها، وقد عانى ساكنتها كثيرا من تصرفات هذا الأمير وما كان يقوم به في ظل سيطرة الإسبان على أغلب مظاهر الحياة فيها.

ومن جانب آخر، استثمر الملك الإسباني شارلكان في أوضاع الدولة الحفصية للسيطرة على حكامها، بعدما شهدت حالات من التراجع والوهن،

وبالأخص بعدما توفي السلطان الحفصي محمد بن الحسن، والذي ترك عددا كبيرا من الأولاد وصل إلى خمسة وأربعون ذكرا -حسب عديد المصادر-، حيث توفي السلطان محمد في سنة 1526م، وكان قد أوصى بالخلافة لأصغر أبنائه مولاي الحسن (تومي، 2019/2018، صفحة 68).

وبعد توليته أمور الحكم في البلاد التونسية، استغل الأمير الحفصي مولاي الحسن بن محمد فرصة إبرام اتفاقية 1535م والتي حولت البلاد التونسية إلى شبه مستعمرة إسبانية، مقابل أن يحتفظ الحفصيون بسلطة شرفية، فسلمت حلق الوادي للإسبان ومنعت الموانئ على العثمانيين الأتراك، وأعطيت عديد التسهيلات والامتيازات للمسيحيين القادمين لتونس في مجالات التجارة، وأصبح السلطان الحفصي رمزا للخيانة لدى الأهالي (الأرقش وآخرون، 2003، صفحات 53-54).

وتتفق عديد المصادر التاريخية على أنه لو لم تعقد اتفاقية 1535م بين مولاي الحسن وشارلكان ولم يخذل الأمير الحفصي رغبة الأتراك العثمانيين في تحرير وضم تونس للدولة العثمانية ضمن المشروع المعلن من قبل السلطان العثماني سليم الأول، لما خرجت البلاد التونسية من سيطرتهم أول مرة بتلك السهولة، فعلاقة العثمانيين بسكان بلاد المغرب الإسلامي وخصوصا ساكنة البلاد التونسية ليست وليدة فترة تواجد واستقرار وتقارب الإخوين بربروس بالسلطان الحفصي محمد بن الحسن، بل أن من بين غايات هذه السياسة و هذا المشروع هو دعم فئة الأندلسيين المهجرين من بلادهم (أزتونا، 1990، صفحات 868-869).

من الظروف التاريخية التي ساهمت كثيرا في تسريع إنهاء الوجود الحفصي بتونس وإعلان التبعية للدولة العثمانية، هو تأثير إلحاق الجزائر والذي كان سنة 1518م وتعيين أول بايلرباي عثماني عليها وهو خير الدين بربروس، ضف إلى ذلك تحرير أغلب السواحل الجزائرية ودحر الإسبان منها، مما تسبب في تضيق الخناق على معاقله وخاصة وجوده في البلاد التونسية، كما أن إلحاق آخر تم في شرق البلاد التونسية بالدولة العثمانية وهي طرابلس الغرب من طرف بحار وقائد عثماني وهو درغوث باشا والذي تم سنة 1551م.

وفي المقابل لذلك ساهمت عديد الظروف وعجلت بضرورة التحرك العثماني لاسترجاع البلاد التونسية من الإسبان، فنجح درغوث راييس في استعادة قفصة التونسية في 20 ديسمبر 1556م والقيروان في 27 ديسمبر



1557م، وهي عبارة عن عملية عسكرية تمهيدية لاجتياح العليج علي سنة 1569م. ولعل النقطة السوداء في كل هذه المعطيات التاريخية - وخاصة في إطار محاولات الدولة العثمانية وأسطولها- هي نتائج الحملة المسيحية الأوروبية في معركة ليبانت سنة 1571م (الشريف، 1993، صفحات 72-73).

ويتضح من كل هذه المعطيات التاريخية وأخرى أن البلاد التونسية حتى سنة 1573م، شكلت أحد أهم التحديات التي واجهتها الدولة العثمانية في مختلف مراحل توسيع مجالها الجغرافي سواء في بلاد المشرق أو في بلاد المغرب، وإن قرار السلطان العثماني سليم الثاني (1566-1574م) تجهيز حملة عسكرية بحرية ضخمة لاسترجاعها من الإسبان وإنهاء الوجود الحفصي، لهو دليل على أهميتها لدى صناع القرار بالباب العالي، ويشير صاحب المؤنس إلى ذلك بقوله: "...ولما نمت أخبار تونس وما حل بها إلى ملك بني عثمان وهو السلطان سليم....تأقت همته الى نزع الديار التونسية من أيدي الكفرة ويبدل عوضهم أناسا بررة..." (ابن أبي دينار، 1869، صفحات 175-189).

بعد اتخاذ قرار الحملة من طرف سليم الثاني، عين على رأس قيادتها الرئيس سنان باشا ويساعده في ذلك العليج علي، وقد أمر بتوفير كافة الظروف لهما من عدة وعتاد لتنفيذ هذه المهمة. وقد شحنت المراكب وما يحتاج القائدين من ذخائر وأموال وآلات حرب، انطلقت الحملة من القسطنطينية غرة ربيع الأول سنة احدى وثمانين وتسعمائة أي سنة 1574م (مقديش، 1988، صفحة 619)، وانتهت بتحرير البلاد التونسية من الإسبان وإعلان إنهاء الحكم الحفصي الذي استمر لقرون عديدة.

بعد ضم تونس بشكل نهائي إلى الدولة العثمانية، أصبحت تحمل لقب وجق عثماني وبعدها لقب إيالة عثمانية، ترك فيها سنان باشا نحو 4000 جندي من الانكشارية بعد أخذ رأي السلطان العثماني سليم الثاني، لكن قبل أن يقفل عائداً إلى اسطنبول، عين حيدر باشا (مسؤول منطقة القيروان) كأول حاكم عثماني لوجق تونس العثمانية، في حين تم تكليف شخص آخر وهو رمضان باشا بتسيير الشؤون المالية وجمع مختلف الضرائب. بعدها مباشرة عاد قائدي الحملة سنان باشا والعليج علي باشا رفقة بقية الأسطول العثماني إلى اسطنبول، ولم يفرضا أية ضرائب على تونس لفائدة الدولة العثمانية، وحصل كل منهما على جوائز كبيرة منها لهم السلطان العثماني تقديراً لما

قاما به من نصر وما أبدياه من شجاعة في قيادة الجيش والأسطول وتحرير البلاد التونسية (الأرقش وآخرون، 2003، صفحات 53-56).

خاتمة:

من خلال هذه الدراسة وما جاء فيها أمكننا إيجاز أهم النتائج التي توصلنا إليها كما يلي:

- عرفت فترة ما بعد إعلان قيام الدولة الحفصية خلال القرن 13م تباين عنصر الاستقرار بين ولايات الأمراء الحفصيين، وأن خاصية التوريث في الحكم بدأت في فترة حكم أبي زكرياء يحي الحفصي.

- عمل الأمراء الحفصيون في إطار سياسة توسيع المجال الجغرافي لدولتهم على محاولة كسب أعيان القبائل والقوى المحلية للحفاظ على سلطتهم في مختلف مناطق البلاد.

- تعتبر فترة حكم أبو عبد الله محمد بن الحسن (1493-1526م) بداية ملامح الانحطاط والتدهور في البلاط الحفصي بسبب الصراع السلطوي الداخلي، ضف إلى ذلك اشتداد التحرشات والحملات الإسبانية المسيحية على سواحل البلاد.

- شكل التقارب الأولي بين الأمير الحفصي محمد بن الحسن والأخوين عروج وخير الدين بربروس بداية القرن 16م نقطة تحول تاريخية هامة للدولة الحفصية، وذلك من خلال مجيء واستقرار الأخوين بميناء حلق الوادي وعقد اتفاق مصلحي مشترك بين الطرفين.

- لا يمكن لأي أحد أن ينكر دور الأخوين في تحرير وتخليص السواحل الحفصية من الاحتلال الإسباني وإعلان التحرير الأول سنة 1534م، فعروج بربروس بترت ذراعه في إحدى الصدمات العسكرية لتحرير ودحر الإسبان منها.

- تعتبر فترة حكم مولاي الحسن بن محمد -الذي ورثه أبوه سنة 1526م حكم الدولة الحفصية- أسوء فترات حكم الأمراء والسلاطين الحفصيين وذلك بسبب طريقة تسييره للدولة، وتقربه المذل من الإسبان بعد توقيع لمعاهدة الخيانة والتبعية في 06 أوت 1535م.

- من الظروف التاريخية التي ساهمت كثيرا في إنهاء الوجود الحفصي بتونس وإعلان التبعية للدولة العثمانية هو تجليات إعلان الجزائر إيالة عثمانية سنة 1518م وتعيين أول بايلرباي عثماني عليها، ضف إلى ذلك

إعلان إلحاق طرابلس الغرب من طرف البحار والقائد العثماني درغوث باشا سنة 1551م.

- يتضح من كل هذه المعطيات التاريخية أن تونس وإلى غاية سنة 1573م شكلت أحد أهم التحديات التي واجهتها الدولة العثمانية في مختلف مراحل توسيع مجالها الجغرافي في بلاد المغارب، وقرار السلطان العثماني سليم الثاني (1566-1574م) تجهيز حملة عسكرية ضخمة لاسترجاع البلاد التونسية من الإسبان وإنهاء الوجود الحفصي هو نقطة التحول المفصلية في دحر الأسباب منها وإنهاء الحكم الحفصي، وإعلان الإلحاق النهائي سنة 1574م.

التعليقات:

-التعليق رقم 01: جامكية: تعني في الأصل المخصصة للأزياء ثم صارت تعني الأجرة، المرتب، المعاش.

- قائمة المصادر والمراجع:

- 1- ابن أبي الضياف أحمد، (1977). إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان. ج2. تونس: الدار التونسية للنشر.
- 2- ابن أبي دينار، (1869). المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية. ط1. تونس.
- 3- أبي عبد الله محمد بن إبراهيم (الزركشي)، (1966). تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية. تح وتبع: محمد ماضور. ط2. تونس: المكتبة العتيقة.
- 4- الأرقش دلندة، عبد الحميد الأرقش، جمال بن طاهر، (2003). المغرب العربي الحديث من خلال مصادره. تونس: مركز النشر الجامعي.
- 5- ألتز عزيز سامح، (1989). العثمانيون في إفريقيا الشمالية. تر: محمود علي عامر. ط1. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
- 6- الشريف محمد الهادي، (1993). تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال. تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة، ط3. تونس: دار سراس للنشر.
- 7- أوزتونا يلماز، (1990). تاريخ الدولة العثمانية. ترجمة: عدنان محمد سلمان، مراجعة وتنقيح: محمود الأنصاري، مج 2. تركيا: منشورات مؤسسة فيصل للتمويل.
- 8- برنشفيك روبر، (1988). تاريخ إفريقية في العهد الحفصي (من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م). نقله إلى العربية: حمادي الساحلي، ط1. ج2. بيروت: دار الغرب الإسلامي.



- 9- بن خروف عمار، (2006). العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن 10هـ/16م. ج1. الجزائر: دار الأمل للنشر والتوزيع.
- 10- بونار رابح، (2000). المغرب العربي تاريخه وثقافته. الجزائر: دار الهدى.
- 11- تومي الطاهر، (2019/2018). علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا ما بين 1520-1792م. أطروحة غير منشورة لنيل شهادة دكتوراه علوم، جامعة جيلالي اليابس. سيدي بلعباس. الجزائر.
- 12- حسني عبد الوهاب حسن، (1953). خلاصة تاريخ تونس. ط3. تونس: دار الكتب العربية الشرقية.
- 13- خير فارس محمد، (1982). تاريخ الجزائر الحديث، من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي. ط1. بيروت: مكتبة دار الشروق العربي.
- 14- طقوش محمد سهيل، (2013). تاريخ الدولة العثمانية من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة. ط3. بيروت: دار النفائس، بيروت.
- 15- فريد بك محمد، (1988). تاريخ الدولة العلية العثمانية. تح: إحسان حقي. ط6. بيروت: دار النفائس.
- 16- كربخال مارمول، (1989). إفريقيا. تر: محمد حجي وآخرون، ج3. الرباط: دار نشر المعرفة والتوزيع، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر.
- 17- مجهول، (1934). غزوات عروج وخير الدين. تصحيح وتعليق: نور الدين عبد القادر، الجزائر: المطبعة الثعالبية.
- 18- مقديش محمود، (1988). نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح: علي الزواوي، محمد محفوظ. ط1. مج1. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- 19- وولف (ب) جون، (2009). الجزائر وأوروبا (1500-1830)، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله. الجزائر: دار رائد، عالم المعرفة للنشر والتوزيع.
- 20- De Haèdo Diego, (1881) , Histoire des Rois d'Alger, traduit par : H.D.DE Grammont. Alger: Adolphe Jourdan, Libraire-éditeur.
- 21- Mercier Ernest, (1891), Histoire de l'Afrique septentrionale . T3 , Paris: Ernest le Lerroux éditeur.
- 22- Rousseau Alphonse, (1980), Annales Tunisiennes ou aperçu sur la Régence de Tunis , Tunis: édition Bouslama.